عمر فى بيته

كان الخليفة الأكبر - صاحب الأمر فى الجزيرة العربية، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدبر الحكم فى الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور - رجلا فقيراً يعيش فى بيته عيشه الكفاف، ويقنع من الغذاء والكساء بخط لا يتمناه كثير من الرجال، ويزهد فيه كثير من النساء.

فمن غير العيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبى عليه السلام، فلم يقبلنه إلا وقد خيرن بينه وبين الطلاق.

وما ندرى أى الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى، وهى جيمعًا مما تغالى به السير وتزدان مجماله، ولكننا لا نعرف بينهما ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين: أن يعيش فى بيته عيشًا لا يشتهى، وأن تكون فى يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة[1] تغرها، ولا صولة تخفيها من أن ترفضها وتأباها.

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى فى الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعن فى سلطانه.

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفًا ولم نسمع فيما قبل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى، فقالت أن أبان بنت عتبة بن ربيعة أنه رجل "أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر إلى به بعينه".

والذى نعينه من الوصف هو قولها عن مخالفته الله أنه كان يخافه كأنه يراه بعينه.

فهو من الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المنفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شئونه. إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان، وحقق

---

(١) خلابة: أى ما يخلب ويخدع.

مبالغات أبى الطيب المتنبى حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من إيمان بالغيب لا يبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين، وهى قولة عابرة من قائلة أصابت ما لم يصبه قائل، ولعلها لا ندرى مدى صوابها. وخطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له: الأمر إليك: ثم سألت أختها فأبنه وقالت: لا حاجة لى فيه. فزجتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش شديد على النساء. وكرهت عائشة أن تجبه[1] بالرفض فوسطت فى الأمر عمرو بن العاص يختال له يرفقه وحسن تدبيره، فجاء عمر وفاجأه قائلا: بلغنى خبر أعيذك بالله منه. قال ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر. قال نهم، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى؟ قال لا واحدة، ولكنها حدثة[2] نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما تقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك. فكيف بها إن خالقتك فى شىء فسطوت بها؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك!.. ففهم عمر أن بن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء.. فسأله كأنه يستطلع ما وراء من الممانعة. كيف بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، تعلق منها بنسب رسول الله.

وأم كلثوم بنت على حدثة أيضًا، والمحظور فى أغضابها أكبر من المحظور فى إغضاب بنت أبى بكر، وإن اعتمد بن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها فقد كان حريًا به أن يعتمد على شىء من ذلك فى خطبته

(١) تجبهة: تواجهه. (٢) حدثه: صغيرة السن.

لبنت الصديق. . فلن يفوت عمر - وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر - أن يفهم سعيه، وأن يتجاهله لئلا يكف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريق فى القصة - وكلها طريف - أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه ما دام على صدق فى مقاله.

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح إليها، ولكن دارس الأخلاق لا ينبغى أن يعيب هذه الخصلة إلا بمقدار ما فيها من نقص فى الطبائع الإنسانية الأصلية. إذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة، ولكننا نخطئ كل الخطأ إن حسبناها حرمانًا من البر والرحمة، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة. ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب فى هذه الحالة أن تكون خشونة - كما أسلفنا فى فصل سابق، درعًا يستر بها مواضع اللين فى خلقه، وضربًا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه تتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية. فالخشونة نفيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة، وعمر ابن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى فى علاقاته بالأهل والنساء.

رحمة عمر رحمة فى غلاف، وليست بالرحمة المشكوفة لكل ناظر ولامس، ولا تطول بالناس عرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب ويع منهم بالعطف والمودة، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولى وحميم.

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كلفن بحبه ورضين عيشه لرضاهن بمودته وعطفه، وكانت إحداهن التى سميت العاصية وسماها النبى عليه السلام لا تطيق فراقه، فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار ولم تزل فى انتظاره.

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة، تولهت[1] فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها فى تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهى التى قالت فيه:

عصمة الناس والمعين على الدهر ... هو غيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوب[2]

وقالت فيه:

رءوف على الأدنى غليظ على العدا ... أخى ثقة فى النائبات منيب
متى يقال لا يكذب الله قوله ... سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه:

جسد لفف فى كفانه ... رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه:

يا ليلة على نجومها ... فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرنى حذارك مرة ... فاليوم حق لعينى التسهيد

ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فى الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة. فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه، ولا نخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير مقصود.

---

(١) تولهت: كاد عقلها يذهب من شدة الحزن.

(٢) شعوب: اسم للمنية "الموت"، سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق.

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عنيانها؟

المرأة ولا نزاع!

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ: "إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور".

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج فى مضطرب الفتون.

وكلما أوصى بوصية فيها إنما هى الفتنة التى يتقيها، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أكتع وأنضر، ولكنه قال عليكن بهن لأنهن أكثر حبًا وأقل حبًا[1].

ولما توجس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم ولم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن "فى نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم".

فالخلابة هى المحذور الذى يتقى.

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر. إنك لا تبعد كثيراً حتى تلمس الموضع الذى نم عليه الرجل حيث قال: "لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما[2]" .. أو نم عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال: "أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى، فإذا احتيجَ إليه كان رجلا".

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشيء المهين، وإن قال الغيور الحذور بلسانه أنها لشيء مهين؟..

---

(١) الخب: الخداع.

(٢) عروه بن حزام: شاعر من الشعراء العشاق المشهورين وصاحبته عفراء، مات شهيد عشقه.

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فإنك لن تجده فى نفس هذا الرجل بتة، وإن جهدت فى البحث.

فكان ابنًا بارًا لا ينسى التحدث عن أبيه، ويعتز بذاكره على ما كان قسوته عليه فى صباه، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى، فانتهى وهو يقارب الكهولة.

وكان أبًا يحب أبناءه ويعرف وجد الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره.. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبله، فسأله المرشح للولاية: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين! إن لى عشرة أولاد ما قبلت أحدًا منهم ولا دنا أحدهم منى.. فقال له عمر: وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك.. إنما يرحم الله من عباده الرحماء. ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزق وهو يقول أنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتقاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلابًا إلى المدينة. فلما عاد ودخل عليه سأله: ما بلغ من برك بأبيك؟ قال: كنت أكفيه أمره، وكنت اعتمد - إذا أردت أن أحلب لبنًا - أغرز ناقة فى إبله وأسمها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفًا بصره، محنيًا ظهره، فسأله: كيف أنت يا أبا كلاب؟.. قال: كما ترى يا أمير المؤمنين.. ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يدنى الإناء إلى فمه: لعمر الله يا أمير المؤمنين أنى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الإناء!.. فقال عمر: هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به. فوثب إليه ابنه، وطفق الذى لم يكد يراه

يضمه ويبله.. وبكى عمر، وأمر كلابًا أن يلزم أبويه ما بقيا، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله.

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشقق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلا: يا أمير المؤمنين، إنما هذا ما ألقت الريح!.. قال عمر: أرنى أنظر فإنه لا يخفى على. فنظر فى حجره ثم قال: صدقت. ألا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته!.. فقال: يا أمير المؤمنين أترى هؤلاء الآن؟.. وأشار إلى الصبية الهاربين، ثم قال: والله لئن انطلقت لأغاروا على فانتزعوا ما معى، فمشى معه عمر حتى بلغه بيته!..

وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتًا فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة التى انتقلت إلينا فى بعض الروايات، وخلاصتها أنه رضى الله عنه كان جالسًا مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلا ثم بكى، فسأله من حضر فقال: كنا فى الجاهلية تصنع صنما مع العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى، أما بكائى فلأنه لى ابنه فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حية.

فهى قصة يعتورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعها فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته وإسلامه، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها إلى ذروتها، وهى نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها.

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية، ولم يشتهر بنو

عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها.

وقد ولدت حفصة قبل البعث الإسلامى بخمس سنوات فلم يئدها. فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها؟.. ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخئولتها؟

ما نحسبها إلا إحدى جنايات الأغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للأغراب والإعجاب. فهى اختراعه تصفعها قرائن التاريخ وتضعفها خلائق عمر التى لا تتبدل هذا التبدل من النقيض إلى النقيض بين جاهليته وإسلامه. وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه، وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقى عليه. فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعًا لغرابتها ومقربًا لتصديقها، وغير هذا الأدب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التى لا تطاق.

إن قليلا من الآباء من أحب أبناءه كما أحب عمر أبناءه، وإن قليلا من الأخوة من أحب أخًا كما أحب عمر زيدًا أخاه، فما سمع اسمه بعد مقتله إلا سالت عبرته، وما هبت الصبا كما قال إلا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه فى رثائه.

بل إن قليلا من الأصدقاء من أخلص لأصدقائه وعشرائه كما أخلص عمر لكل صديق وعشير.. وهو القائل: "لقاء الإخوان جلاء الأحزان"، وهو القائل حرصًا على المودة وضنا بها: "إذا أصاب أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك".

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة فى نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها فى ينابيعها الخفية التى نسرى منها وتترقرق

فى نواحيـها، ولا ننقب عنها فى الصخـور التى تكتنفها وتطفو عليـها وترفع عليها وترفع أعلامها.

أو نحن حويون أن ننقب عـنها بين هذه الصخـور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة. فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شىء تحتويه.

فمـا هذه الصخـور والأعلام التى كـانت تروع الناظر من هيب ة عـمر ومن ملامح سـمياه؟.. هى مظهر قـدرته على نفسه لا أكـثر ولا أقل، وهى الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب إليها الوهن وأن تؤخذ على حين غزة، من حـيث يخاف عليها. والمرء لا يعتصم بقـدرته على نفسه وهو آمن، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سـربه. إنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسـه حين يحذر، وإنما يحذر من الطارق الذى لا يسـتهن ولا يزال على رقبة منه,

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصامًا بقدرته فى أمس الأمور بقلبه وسـريرة طبعه: فى خـشية الخـديعة من ناحية الـترف والمتعة، فـهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية دنيوية، وفى خشية الخديعة من ناحية ولده وولده وأهله فهـو بحفل من أن يرى لعم رزقا لا يعرف مـأتاه، وبجفل من أن يرى لهم رزقا لا يعرف مأتاه، وبجـفل من أن يرى لعم إبلا سمانا بين الإبل العجاف مـخافة أن يسميـها لهم الناس فى مراعيـهم.. لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين!..

وكان أكثر ما يكون اعتصاما بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقتدر بها شـيطان الغواية.. وتـلك هى المرأة لا فرق بين خـيارها وشرارهـا، فمن شرارها استعذ بالله!.. ومن خيارها كن على حذر!..

وإذا اعتصم عـمر بن الخطاب بنفسه فـانتظر شيئا واحـدا لن تجد حولا عنه، وهو تقـديره العدل تقـديره الخائـف أن يريد فيـه شعـره أو ينقص منه

شعره. فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفى سبيل الحق انتصاره. يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه، فلا هى بظالمة ولا مظلومة فى كل أمر يرجع إليه.

فمن همة كان ألا تظلم لضعفها، ولا تغبن لحيائها وخفرها، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه، وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره فى الصلة بينها وبينه. فسمع مرة أعرابية تنشد:

فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاح[1] فتكلم عند ذلك قرت

ومنهن من تسقى بأخضر آجن[2] أجاج ولولا خشية الله فرت

فتوهم فى زوجها عيبا وأرسل فى طلبه فإذا هو متغير الفم، فخيره بين خمسمائة درهم وإطلاقها، فقيل الدراهم وطلقها.

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد:

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى ألا خليل ألاعبه

فو الله لولا الله لا شىء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج فى غزوة طالت غيبته فيها، فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج فى الغزوات.

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة، لأن النساء "يجبن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم".

---

(١) النقاح: الماء العذب الصافى.

(٢) الأجن: الماء المتغير الطعم واللون: والأجاج: المالح المر.

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب[1] قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضربا وقال: غررت القوم. ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن نستر من سيرتها ما لا يضير سُتره إن عاق زواجها. فكاشفه رجل بأمر ابنه له أسلمت وأصابها حد من حدود الله، فهمت أن تذبح نفسها. فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها[2]، فبرئت وتابت واستقامت على الهداية. فسأله: أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟.. وقال: ويلك!.. أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا. "أنكحها نكاح العفيفة المسلمة".

فهى أولى عنده ببعض المحاباة حين لا ضير فى المحاباة. وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه "ليمنعن النساء إلا من الأكفاء".

وترى أنه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: أو كل البيوت بنى على الحب؟ فأين الرعاية والتزمم؟".

فإنه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذلقة لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أفمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده، لأن الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونه وأخرى، وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير.

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردته عنه امرأة بالبينة الصادعة[3]، ومن ذاك

---

(١) الخاضب: الذى يخضب بالحناء أو نحوه.

(٢) الأوداج: جمع ودج وهو عرق فى العنق.

(٣) البينة الصادعة: المراد، البنية التى تحملك على الأذعان والتصديق.

أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فسطاء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟ فلم يأنف أن يسألها: ولم؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: " . . . وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا"، فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

فما للمرأة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.

والذى ليس لها بحق فى رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا تتعرض لعمله الذى لا تفهمه، ولا يرجع إليها فى أمثلة، ولاسيما أن كان شأنا من شئون الدولة، ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفعت له امرأته فى وال مقصر تسأله: فيم وجدت[1] عليه؟. . فالتفت غاضبا وقال لها: وفيم أنت هذا؟. . إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين!. كلمة لا تلبس القفاز الناعم، ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين.

والذى ليس بحق للمرأة أن تعدو على كلمة وليها، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال: " . . . كما معشر قرى نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار. وصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى. قالت: ولم تنكر أن أرجعك؟ فو الله أن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. . فأفزعنى. . ".

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعا لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته فى بيته، لكن طريقة محمد فى تغليب الكلمة طريقه نبى يؤم متبعيه، وطريق عمر طريقه مريد بنبوه، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد فى كل ما سبق إليه.

---

(١) وجدت عليه: غضبت "من الموجدة".

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم. وهذا هو الفارق بينهما كما بيناه فى مناسبة سابقة. وإنما الفارق بينهما فى المسابقة التى نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه - عبد الله - لأنه عجز عن تطليق زوجه فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك: "ويحك! كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته؟"

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كله ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة فى غرورها واعتزازها بدلال الضعف على القوة، لأنه فى حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها. فهو يرى فى تكبر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعا من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين، إذ هو ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء.

على أن شاء الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه، فبعد عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها يظهر لنا من رأيها هى فيه.

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فموصفته بأنه كان نسيج وحده، وهى عائش رضى الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه "كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًا". وصاحت أم أيمن مرضعة النبى يوم أصيب: اليوم وهى الإسلام.

وعلينا نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير الزمان. وما نخالنا نعرف الرأى يومئذ فى الرجل

الذى يكبر فى عينها كـما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبـة زوج أبى سفيان وأم معاوية، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه.

جاءها أبوها فى رجلين من قـومها يخطبانـها فاستخـبرته عنهمـا فقال يصفهمـا: "أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العـيش، أن تابعته تابعك، وأن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه، منظور إليـه فى الحـسب الحـسيـب والرأى الأريب، مدره أرومـتـه[1] وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله".

فقالت: "يا أبت! الأول سـيد مضياع للحرة، فمـا عست أن تلين بعد أبائهـا، وتضيع تحت جناحـه إذا تابعـها بعلهـا فأشـرت[2] وخافـها أهلـها فأمنت؟.. سـاء عند ذلك حالها، وقـبح عند ذلك دلالها، فـإن جاءت بولد أحمقت. وإن أنجبت فـمن خطأ ما أنجبت[3]. فاطو ذكر هذا غنى ولا تسمه على بعد!.. وأما الآخر فبعل الفـتاة الخريدة الحرة العقلية[4]، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقته. فزوجينيـه". ونحن نحسب هذا رأى المرأة النجيبة فى زمان عمر، ولو شئنا لحسبناه رأيهـا فى كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان. فإن زادت خشـونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فـهى خشونة غيـر محقـورة السبب، لأنها لا تحسب على عـمر "الزوج" من ناحية حتى تحسب لعـمر "الرجل" من ناحية أخرى. إذ هى لم تأت من قلة القـدرة على العيـش وإنما جاءت من كـثرة القـدرة على النفس، وهى خليفـة تعجب بها المرأة فى الـرجل الذى تكبره، لأنها من أقـوة خلائق الرجولة فيه.

---

(١) المدره: السيد الشريف يقدم فى اللسان واليد، والأرومة: الأصل.

(٢) الأشر: البطر.

(٣) احمقت: ولدت أحمق، وأنجبت: ولدت نجيبا.

(٤) الخريدة: العذراء فيها حياء وخفر، والعقلية: الكريمة.

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتى تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن، ويجيز لنا أن نسهب فى الكلام عن موقع كل منهن من نفسه، وأثرها فى حياته، ومبلغ حظورتها عنده، وسبب هذه الحظوة فى رأيه وشعوره، وما يدل عليه جميع لك من نوازع فطرته وذوقه. فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف فى هذا الباب، فعلم يبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات.

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئا كثيراً فى هذا الباب، لأن مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه، فلا تخطىء إذا رجحنا إن سمات هؤلاء النساء جميعًا تدخل فى نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر فى المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه.

فأفضل ما كان يشرطه فى المرأة أن تكون ولودا ودودا، وألا تعاب بالحمق فيسرى حمقها فى دماء وليدها، إذ "لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا[1]" كما قال.

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان فى جميع خلائقه عربيًا بحتا يستملح ما يستملحه كل عربى صميم، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة ويروى عنه أنه قال: "تزوجها سمراء ذلفاء[2] عيناء[3]، فإن فركتها[4] فعلى صداقها" وأنه قال: "إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تم حسنها"، وهذان هما الملاحقة والحسن كما وصفا فى الشعر العربى من قديم إلى حديث.

---

(١) المائق: الأحمق الغبى.
(٢) صغير الأنف.
(٣) عيناء: حسنة العين واسعتها.
(٤) فركتها: أبغضتها وتركتها.

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات، فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة. فروى فى مأثور الحديث الشريف أن سعد ابن عبادة قال يوما فى حضرة النبى عليه السلام: ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن! فقال له عليه السلام: "هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟"، وهى إحدى زوجات عمر قبل إسلامه.

وروى أن جميلة بنت ثابت بهذا الاسم لجمالها، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية، فكرهته بعد إسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها ونوديت بعد ذلك باسم جميلة. وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى. وروى مثل ذلك عن زوجات آخريات، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور.

ومن أخبار زوجاته أنه طلق أثنين من أشهر نسئه بالجمال وهما قريبة وجميلة.. تزوج بالأولى وطلقها قبل إسلامه، وتزوج بالثانية وطلقها بعد إسلامه، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو شموس المرأة غير صبور؟.. لعله ذاك، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها، أو غضت، من دلالها بالفطنة والتقوى.

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة، وولدت له ابنا سماه أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه، وأعزها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوة، فلم يفترقا فى الحياة ولم ينشب بينهما خلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمها إلى بيت المال.

وله مع إحدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه: تدل على عمر فى أبوته، وتدل على عمر فى سورة طبعه، وتدل على عمر فى مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه.

فقد طلق جميلة ولد منها ولد صغير، فرآه يوما يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه، فأدركته جدة الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا إلى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة، فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فهى حاضنته، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة.

ولعمرى أن فى هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص، وفيها عمر إنسان عطوف، وفيها عمر رجل سوار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والإنصاف، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه.

وقد تدل هذه القصة على شىء يبرئه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد فاسمها عاصية واسم أمها الشموس، وكأنهما - ينبئ عنهما هذان الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهن من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن أن عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له: سميتنى باسم الإماء! ثم اختار لها النبى هذا الاسم فقالت: يا رسول الله! أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت، قال عليه السلام: أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه؟.

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإماء، وأن الشموس والعصيان أليق بالحرائر أزواجهن وأحبوهن، فإن كان فى تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها، وكانوا جميعا عنده بمكان الحب والمودة ولا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كمنا يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم، ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم "إن الناس ينظرون إليكن نظر الطير إلى اللحم"، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة! وليس بنا أن نحصى فتناواه وأقضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولنا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة وذهبا إلى أبى موسى وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أفنعكما به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالا من مال الله فبشريًا به متاعا من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألها: أكل الجيش أسفله؟ ثم أمرها أن يؤديان المال وربحه.. فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين من هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه! وقال رجل فى المجلس: يا أمير المؤمنين[1] لو جعلته قراضا؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتبقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباة بإذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به فى أهله، ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله صلى الله، فقال عثمان: كل واطعم، وقال على: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وقال هو: إن

(١) الفرائض: فارضة قراضًا، أى دفع إليه مالا ليتجر فيه ويكون الربح بينهما على ما شرطا.

افتقرت أكلت بالمعروف، وإن أيسرت قضيت. وكان يفترض فيسر فيتأخر، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد فى تقاضيه، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دينه.

ومع هذا كان يشفق أن يفترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الافتراض من بعض صحبه. فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف فى طلب أربعة آلاف درهم يجهز بها عيرا[1] إلى الشام. فعاد الرسول يقول له: خذها من بيت المال ثم ردها. ! وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال: أفئن مت قبل أن تجيء قلم أخذها أمير المؤمنين دعوها له. وأوخذ يوم القيامة؟: "لا... ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثى".

وحدث ما توقعه من مجيء الأجل قبل دينونه جميعًا قلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التى كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله، وقال لابنه: "إن وفى به - أى بالدين - مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بنى، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشًا ولا تعدهم[2] إلى غيرهم". وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرًا فأشار عليه مقترحا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى، فلم يقبل عمر، ودعا بابنه عبد الله فقال: اضمنها! فضمنها، ووفى بوعده. فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعده من الأنصار، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه، وقد يبعث دار فى هذا الدين وسميت زمنا باسم دار القضاء، لأنها بيعت فى قضاء دينه.

ولأن يكون عمر مدينا موفى الدين لهو أعظم الشرفين... وأيسر من ذلك شرفا أن يموت غنيا بغير دين.

(١) العير: الإبل التى تحمل الزاد.

(٢) أى لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم.